هشام توفيق الركابي

الصـــــدأ

« ١ »

رن جرس الباب . رن رنينا متواصلا ومرعبا . كصرخة استغاثة ، أو كعواء مخيف . استمر ذلك لبرهة لم يعلم امدها ، ولكنها كانت كافية لتشييع الهلع في أرجاء البيت كله .. وعمه السكون .

المرأة هي التي انتفضت في البداية . جلست مهزوزة على طرف الفراش . واعقبها الرجل في الجلوس . وللحظات طويلة جلسا وجها لوجه ، متلامسين تقريبا . من غير أن ينبسا بحرف . ثم رامقت عيناهما في نظرات متوجسة حائرة ونهضا واقفين .

كان صوت الرصاص لا يزال يلعلع في السماء . ككل ليلة مضت . وكانت تسمع بين الحين والحين فرقعة الصواريخ والقنابل والمدافع في دوي هائل يهز الجدران والسقف ويحطم زجاج النوافذ . غير ان هذه الامور لم تعد موضع دهشتهما او استغرابهما الان . بل لم تعد تثير حتى مجرد ذلك الاحساس الفطري بالخوف . فهكذا كانت بيروت منذ اكثر من تسعة اشهر .. ولكن الجرس كان له رنين آخر ، رنين مشوش مزدحم جافل .

خطا الرجل عدة خطوات قبل ان تنتبه المرأة اليه . ثم جذب نفسا عميقا . وانفلت من باب الحجرة . تبعته المرأه بصمت . وفي الردهة كان الليل لا يزال يحتفظ بلونه في زواياها وفي بعض الاخاديد والمنعطفات البعيدة عن مصباح النوم . وبدت الاشياء هشة الحدود ، متحللة في كثير من الاماكن ، وكاشفة عن نفسها في اماكن اخرى قدر ما يسمح به الضوء الضعيف .

اعاد الجرس رنينه المتضخم الملتاع . أكثر طولا هذه المرة . واستشعرت المرأة اللحظة شيئا ، كما لو تسلل عبر دمها أحساس كريه بالدوار . ولامست صدرها وجبينها دون وعي . وعلى الحائط المقابل لها كانت الساعة تدخل الثانية ما بعد منتصف الليل .

قال الرجل :

— لا تخرجي انت . سأتأكد من الطارق قبل ان افتح .

زفرت المرأة وهي تحاول السيطرة على نفسها . ونمتمت بضعف :

— يا الهي ..

— ارجوك . حاولي ان تكوني اكثر هدوءا .

تسلقت نظراتها الجدران بصمت . وبدت عاجزة عن أن تجيب .

تابع الرجل :

— انتظريني هنا .. لن اتأخر .

ودخل الحجرة مرة ثانية . وخرج . ولثانية جمد بصرها على فوهة البندقية الى يمينه . كانت كنقطة كبيرة سوداء . تشبه تماما حدقة عين جاحظة ، أو جرحا ما ، ملطخا بالسخام . وبانتباه شديد لاحظت التقلص اللاانساني في وجهه . التقبض البهيمي الذي يرتسم عادة على وجه حيوان في حالة افتراس . فتأوهت بحرقة :

— لا .

عوى الجرس من جديد .

— من الافضل ان يستعد المرء لمواجهة شتى الاحتمالات .

— ارجوك . لا تنس ان ولديك يوسف واحمد في الخارج ايضا ..

— لن انسى أي شيء .

وتهدج صوتها .

— حاذر ان تضغط الزناد .. اتوسل اليك ..

— قدر استطاعتي ..

وتركت عيناها النظر اليه .. ومع ذلك كانت خطوانه وهو يخترق الحديقة واضحة الوقع في سمعها ، واضحة كل الوضوح رغم اختلاطها باصوات المدافع والرشاشات والصواريخ ..

ومن باب الردهة المفتوح هجم سيل من الهواء ، سيل كيثف ، يحمل رائحة الموت والبارود والدمار واللحم البشري المحترق ..

« ٢ »

كان الليل قاتما . شديد الحلكة . اسود . بشعا . يتوامض بين الحين والحين نتيجة انفجار صاروخ بعيد ، أو ارتفاع نيران الحرائق في بعض المنازل والمخازن والعمارات . الشوارع ذاهلة . مهجورة . مقفرة من الوجوه والاقدام والضجيج والضحكات . لا شيء يتحرك .. لا شيء سوى صوت الدمار والموت .

رفع يوسف رأسه عن الباب لحظة ، وحملق في صدر اخيه المضطجع الى جواره على الجدار . كان الجرح لاينفك ينزف . وبدت البقعة الواسعة على ثديه الايمن تتسع كما لو كانت في سبيلها الى ان تشمل كل شيء .. الشارع والبيوت والعمارات والبحر .. وبيروت كلها . وكان لون وجهه يتذبذب بغموض .

قال لنفسه « سوف يموت قريبا .. »

وصوب نظرات محرقة اخرى الى الجرس اللعين . ومن جديد دقه بعنف . ضغط الحلمة البيضاء في وسطه بكل قواه وانتظر ، ثم زفر في وجه الليل .

هبت ريح عاتية . سفعت الارض . واكتسحت اوراقا وعلبا من « الكارتون » المحروق والملطخ بالطين . ودمدمت بلا مبالاة وهي تتمسح بسور الحديقة القليل الارتفاع ، وبالاشجار والظلمات . وكان الليل لا يزال يسقط باردا . مشبعا برائحة البارود .

فكر يوسف .

« لا ريب انهما خائفان بشدة ، ولهذا لا يقدمان على الاقتراب من الخارج » وجمع شتات نفسه دفعة واحدة . ولطم بكل قواه الباب الحديدي . رن الباب بدوره رنينا مكتوما ، ثم صمت . وتراجع خطوات اخرى ، وبكل ما تبقى له من قوى خائرة اندفع في حركة سريعة ولطم الدفتين المطبقتين باحكام . استيقظ في كتفه ألم شديد . غير ان الباب كان اشد ثباتا من قبل .

فجأة . ومن نهاية الشارع تناهت الى سمعه صيحات وحشية متلاحقة . وراح وميض الرصاص يتطاير عن قرب . وارتفع خيط من الضوء الاحمر الى قلب السماء . وعوى انسان .

« لعلهم يتعقبون اثري . وقد يصلون بين لحظة واخرى . »

ونصاعد في اعماقه دخان من الرعب الفاتل . ود لو يصرخ . يعول . يملأ اسماع والديه بزعيق مجنون . أن افتحا الباب . انا يوسف .. ابنكم .. وهذا احمد ، يوشك أن يموت .. انه ينزف دما ايها المجنونان .. افتحا الابواب .. الابواب . غير ان احساسا مقرورا وفاسيا ملأ حنجرته فصمت .. وصمت الكون من حوله للحظة واحدة ، ثم عاد الضجيج .

تراخت ذراعاه ببطء . وزايلته قواه . وانهار على ركبتيه الى جوار اخيه .

« ليس ثمة من أمل الان » .

زحفت الاصوات اكثر . وومضت رصاصتان بالقرب منه . وتذكر لحظة سقوط أحمد . كان ذلك قبل اقل من نصف ساعة . وكانا وقتها قد حوصرا من قبل القناصة خلف متاريس في مدخل زقاق ضيق . وكان أحمد الى جواره . وكان الرصاص يهطل . ثم سمع صوت ارتطام ما . سقوط جسد . وما أن استدار حتى وجده ممددا على الارض .. حدث كل ذلك في ثانية واحدة ، ثانية واحدة ليس غير . وبقي هو كالمصعوق . لا يفهم . ولكنه في النهاية تراجع . حمل جسد اخيه وهرول الى البيت ..

عن بعد ، وفي اقصى المدينة ، كانت الاشجار والحشائش والاعشاب تلتحم فيما بينها . غافلة عن كل شيء . تتشابك في وجه الليل الندي المضبب ، وتتهامس على سفوح الجبال . وكان البحر ايضا ينعقد قليلا في وجه الهواء ، ولكنه سرعان ما يعود الى التسطح الناعم وقد طفت على ظهره ، في الاماكن القريبة من الساحل ، بعض شظايا خشب المخازن والبيوت المحترقة . وبعض العلب البلاستيكية ، أو دمى للاطفال .

جذب يوسف وجه اخيه . واحتضنه بحنان . واخلط بصدره اختلاج انفاسه المضطربة . وكان خرير حنجرته لاينفك يتصاعد . يتصاعد كما لو كان في صراع خفي عنيف .

ـــ أحمد ...

وتناهى اليه انينه المتقطع . انه انين يبكي . يتوسل . يتضرع اليه « اللعنة »

وقفز واقفا . « لا بد من عمل شيء » . وجمد لحظة يفكر . وواتته فكرة . وتلمس أعلى السور . « ان بامكانه ان يقفز » وزحف شيء دافيء لبشرته . « يا الهي . لماذا لم افكر بذلك من قبل . » ونظر تلقائيا في عمق الشارع الميت . « لا احد يبدو بعد » . احتضن اخاه ثانية . وحمله . وبدفعات متتالية استطاع ان يرقده على الحافة الكونكريتية العريضة . وقفز بدوره .

« ٣ »

ترك الرجل زوجته وسط الردهة . وخرج . استقبله وجه الليل الحين الباكي . وكان الجرس لا يزال يئز بقوة . ولفترة من الوقت ظل واقفا على عتبة الباب ، يشخص بعينيه في الظلام والاشجار والفراغ القائم . ثم تنفس بعمق . وضغط ماسورة البندقية بحرارة ، وتقدم صوب الحديقة .

كان الهواء شديد البرودة . وكان يحرك الاشجار السوداء من حوله ببطء . فينبعث من اغصانها صوت همهمة خافتة يتسرب الى اذنيه كأنين جافل لانسان معذب ثم يختلط بانفجارات الدمار .

بتوجس انعطف عن الدرب المستقيم الموصل الى الباب الخارجي . ودخل بين الاشجار . ومشى على العشب الرطب . وراح ذهنه يعمل صافيا على نحو غريب .

« عليه ان ينتظر زمنا هنا . يراقب بريبة وحذر كل شيء . الباب . والاشجار . والسور ، والارض والسماء .. قبل ان يهم بأي عمل . كل ما خارج حدود الجسد في هذا الوقت ، ووسط هذه المدينة ، من الممكن ان يكون قاتلا ، عدوا ، سهما مرديا الى القلب . »

وتقلصت عضلات يديه ، وصعد البندقية الى صدره . وغرس اخمصها في كتفه اليمنى . وحرك اصبع الامان . وانتظر ..

« انه يعرف خططهم جيدا . سمع بها . وشاهدها في اكثر من مكان . في البداية يطرقون الابواب . او يقفزون من الاسوار المنخفضة . وما ان يصبحوا وجها لوجه مع صاحب المنزل حتى تنهال الرصاصات كالمطر . قد يقيدون افراد العائلة ايضا ، يأخذونهم .. هكذا .. الى اية جهة يرغبون بها . ولا يتركونهم الا جثثا مشوهة كذلك . »

وطرقت ذهنه صور شتى لحوادث وقعت بالفعل . هنا . قريبا من منزله . قتل . نهب . اغتصاب . وتصاعدت الى قلبه موجة من الغضب الملتهب . لا . لن يدعهم يفعلون ذلك معه . لن يفعلوه ..

في تلك اللحظة ارتطم جسد كبير بالباب . هزه بعنف . وسمع الرجل أزيز الجرس المتواصل داخل ردهة المنزل ايضا . فانسحب خلف احدى الاشجار . ومن مكانه راح يتصنت الى الليل .

ثمة صيحات وحشية تتعالى عن كثب . وثمة لعلعة للرصاص يتطاير قرب البيت . وامتد عبر السماء خيط من الضوء الاحمر الكامد . وعوى انسان ..

تراجع الرجل قليلا واصبح خلف جذع الشجرة بالضبط . وببطء مرتبك امتدت سبابته الى الزناد ، وشد البندقية على جسده بصورة اقوى .

خيل اليه لوهلة قصيرة ، انه سمع صوتا . وتحفز . وبعينين متألقتين مفتوحتين أخذ يحدق أمامه .

كل شيء لا يزال قفرا . ولم تسمح الظلمة السائدة في ارجاء الحديقة بالرؤية كما يجب . وانتظر متوترا . وعاد يرهف السمع . ومرت برهة من الصمت الكثيف . واعقبها هدير المفرقعات كالعادة . ومرة ثانية تناهى اليه صوت قريب . وشعر بكفيه على البندقية تعرقان ، رغم برودة الجو ..

وفي لحظة شاهدهما هناك . على أعلى السور . كتلتين من الظلام الحالك . في البداية تمكن من تحديد شبح واحد . ثم تبين حركة الشبح الاخر . ماجت الاشياء في عينيه . وتوضحت ثانية . وغمره احساس عامض . مزيج من العواطف المتناقضة . شيء كالشجاعة والجبن في آن واحد . او كالاقدام والاحجام معا . وارتفع وجيب قلبه . وجاهد ان يبقى ثابتا اكثر وقت ممكن . غير ان اللحظات كانت تأخذه بعنف . حتى أحس بانه في سبيله الى ان يتجمد في مكانه ، الى جوار جذع الشجرة ، من دون ان يستطيع تحريك ساكن .

وفي ومضة عين . لا يعرف كيف . تحركت السبابة قليلا الى الوراء . مسافة قليلة جدا . ربما أقل من جزء من السنتيم الواحد . ولكنها كانت كافية لتهز كتفه بشدة ، وتضيف صوتا آخر الى الاف الاصوات الملعلعة في السماء . ثم سقط جسدان من أعلى السور في الوقت نفسه ..

بدرة ـ العراق